التصوف الإسلامي بين روح الإصلاح والتجديد وبناء مستقبل الإنسان المعاصر

د. سيد طواب عبد السيد(*)

الملخص

بداية يمكن القول أن الإنسان المعاصر تحول إلى آلة في يد أصحاب المصالح الاقتصادية الكبرى، ونمت عنده النزعة المادية والميول الفردية والتي لا تراعى القيم الإسلامية ذات البعد الإنساني في الجوهر والمبدأ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أتهم الكثير مجال التصوف بأنه يهتم بالجانب الأخلاقي والروحي وتربية النفس، دون أن يكون له أي دور وأي صله بواقع الحياة، أو بعبارة أخرى أن التصوف مثالي لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع، وإنه غير صالح لتنظيم وإدارة الحياة المعروفة بتلونها وتشابكها، وغير فاعل في المجتمع وغير مشارك في هموم ومشاكل الناس.

ومن هذا المنطلق سوف نحاول في هذا البحث الإجابة على عدة تساؤلات طرحتها هذه المقدمة بالإضافة إلى ذلك كشف العلاقة بين التصوف والمراحل التي مر بها وبين أزمة الإنسان المعاصر، ولعل أبرز هذه التساؤلات الملحة في ذلك، ما هو مفهوم التصوف في علاقته بأزمة الإنسان المعاصر؟ ما الذي يمكن أن ينتظره الإنسان المعاصر من التصوف في تعامله مع أزمته؟ بالإضافة إلى ذلك الكشف عن مدى أهمية وموقع التصوف والفكر الصوفي في عصرنا اليوم، وعن مدى حضور الخطاب الصوفي في هذا العصر وهل يتماشى معه؟ أو العكس، وما الذي يمكن أن يقدمه أو يضيفه التصوف والفكر الصوفي.

(*) باحث اجتماعي ورئيس قسم الخدمة العامة بمديرية التضامن الاجتماعي بمحافظة الأقصر؛ والمحاضر بجامعة القاهرة؛ آداب الخرطوم؛ حاصل على الماجستير في الفلسفة الإسلامية بتقدير ممتاز؛ والدكتوراه في الفلسفة الإسلامية بتقدير مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة وتداولها بين الجامعات المصرية والعربية. Sayedtawab6440@yahoo.com
تليفون: ٠١٠١٦٦٧٩١٢٢

ويتكون البحث من مقدمة وأربعة عناصر:

المقدمة: وفيها بيان أهمية دور التصوف الإسلامي بناء مستقبل الإنسان.

عناصر البحث:

المحـور الأول: توضيـح العلاقـة بين تجديد روح التصـوف والخلل الذي شـاب التجربة الصوفية فكرًا وممارسة.

المحـور الثـاني: شرح التجـارب التي عملت عـلى إحياء المـشروع التجديـدي للتصوف الإسلامي مع توضيح إسهامات العلماء والباحثين الغربيين المعاصرين في هذا المجال.

المحور الثالث: نناقش دور التصوف الإسلامي في مواجهة أزمة الإنسان المعاصر.

المحور الرابع: دور التصوف الإسلامي في بناء وتنمية الإنسان المعاصر.

وفي **الخاتمـة** تناولت أهم النتائج التـي توصلت إليها من خلال هذه البحث وعرضت أيضًا لأهم المصادر والمراجع التي استعنت بها.

كلـمات مفتاحية: الإصلاح والتجديد؛ دور التصوف المعاصر؛ بناء المسـتقبل؛ الإنسـان المعاصر؛ الفراغ الروحي؛ التجربة الروحية

Summary

Contemporary man has turned into a god in the hands of those with major economic interests, and materialism and individual tendencies have grown in him, which do not take into account Islamic values with a human dimension in essence and this principle on the one hand, and on the other hand, many accused the field of Sufism of being concerned with the moral and spiritual aspect and education The self, without having any role or any connection with the reality of life, or in other words that Sufism is ideal and cannot be applied on the ground, and that it is not suitable for organizing and managing life that is known for its color and interlacing, and it is not active in society and does not participate in the concerns and problems of people

From this point of view, we will try in this research to answer several questions

posed by this introduction, in addition to revealing the relationship between Sufism and the stages it has gone through and the crisis of contemporary man, and perhaps the most prominent of these urgent questions in that, what is the concept of Sufism in its relationship to the crisis of contemporary man? What can contemporary man expect from Sufism in dealing with his crisis? In addition to that, revealing the extent of the importance and location of Sufism and Sufi thought in our time today, and the extent of the presence of Sufi discourse in this age and is it consistent with it? Or vice versa, and what can Sufism and Sufi thought add to the world and man today and to the world as a whole? Is it possible to say that Sufi thought restores man to the real essence?

The research consists of an introduction and four elements search items:

The first axis: clarification of the relationship between the renewal of the spirit of Sufism and the defect that marred the Sufi experience in thought and practice.

The second axis: Explanation of the experiences that worked to revive the renewal project of Islamic mysticism, while clarifying the contributions of contemporary Western scholars and researchers in this field.

The third axis: we discuss the role of Islamic mysticism in facing the crisis of contemporary man.

The fourth axis: the role of Islamic mysticism in building and developing contemporary man.

In the conclusion, I dealt with the most important results that I reached through this research and also presented the most important sources and references that I used.

Keywords: Reform and renewal- The role of contemporary Sufism -Building the Future - modern man - spiritual experience - spiritual void

المقدمة

الحمـد لله الذي أنزل الفرقان على عبده محكمًا ومفصلًا؛ لينظر فيه أولى الألباب. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين. وبعد،،،

بدايـة يمكن القول أن الإنسـان المعاصر تحول إلى آله في يـد أصحاب المصالح الاقتصادية الكبرى، ونمت عنده النزعة المادية والميول الفردية والتي لا تراعي القيم الإسلامية ذات البُعد الإنسـاني في الجوهر والمبدأ هذا من ناحية، ومن ناحية أخـرى أتهم الكثير مجال التصوف بإنه يهتـم بالجانب الأخلاقي والروحي وتربية النفس، دون أن يكـون له أي دور وأي صله بواقع الحيـاة، أو بعبـارة أخرى أن التصوف مثالي لا يمكن تطبيقه عـلى أرض الواقع، وإنه غير صالح لتنظيم وإدارة الحياة المعروفة بتلونها وتشـابكها، وغير فاعل في المجتمع وغير مشـارك في هموم ومشاكل الناس.

ومن هذا المنطلق سـوف نحاول في هذا البحث الإجابة على عدة تسـاؤلات طرحتها هذه المقدمة بالإضافة إلى ذلك كشف العلاقة بين التصوف والمراحل التي مر بها وبين أزمة الإنسان المعـاصر، ولعـل أبرز هذه التسـاؤلات الملحة في ذلك، ما هو مفهوم التصـوف في علاقتة بأزمة الإنسـان المعاصر؟ ما الذي يمكن أن ينتظرة الإنسان المعاصر من التصوف في تعامله مع أزمتة؟ بالإضافـة إلى ذلك الكشـف عن مدى أهمية وموقع التصـوف والفكر الصوفي في عصرنا اليوم، وعـن مدى حضور الخطاب الصـوفي في هذا العصر وهل يتماشى معـه؟ أو العكس، وما الذي يمكـن أن يقدمـة أو يضيفه التصوف والفكر الصوفي لعالم وإنسـان اليـوم وفي العالم ككل؟ وهل يمكن القول أن الفكر الصوفي يعيد الإنسان إلى جوهره الحقيقي.

منهج الدراسة

أما عن المنهج الذي استعنت به في هذا البحث هو «**المنهج التحليلي النقدي**» حيث أنه يعد أنسـب المناهج لمجريات هذا البحث، والذي يعتمد على التحليل والنقد بين التيارات المختلفة لأصحـاب الفكـر الصـوفي، ولم اقتـصر فقط عـلى المنهج التحليـلي فقط على طـول البحث، بل لجأت أحيانا إلى استخدام بعض المناهج الأخرى التي كانت ضرورية لهذه الدراسة، ومنها

المنهج النقدي، والذي يتمثل في تصحيح مسار التصوف الإسلامي من خلال تصحيح الخلل الذي شاب التجربة الصوفية من عوامل عدة، مثل الغلو والمغالاة في الدين، وأيضًا التكاسل والبطالة بدعوى الزهد، بالإضافة إلى الدعوة إلى الإعراض عن طلب العلم ويتمثل ذلك عندما أسقط بعض المتصوفة العلم الشرعي من التجربة الروحية، بدعوى أن الصوفي من أهل الخصوصية والتجليات.

عوامل اختيار الموضوع

الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع عديدة اذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر:

أولًا: إن علم السلوك والتربية يحتاج دائمًا إلى دراسة مستمرة لارتباطه بحياة الناس، فحضارة العصر أصبحت اليوم أكثر طلبا للقيم الأخلاقية وذلك بسبب طغيان المادة، والمتصوف كان في كل عصر من العصور ذو ثقافة عالية ولا يوجد من العلوم إلا وكان له رسم فيها.

ثانيًا: الفراغ الروحي الذي يعاني منه إنسان اليوم يكمن في ضبط النفس وتزكيتها والارتقاء بروحه إلى مدارج الكمال، وبالتالي لن يتحقق الوجود الإنساني المتوازن إلا من خلال تبني منهجًا ربانيًا يستهدف بناء الفرد أولا ثم إصلاح المجتمع وتنميته.

ثالثا: توضح دور التصوف في الوقت المعاصر والعمل على نشر الوعي بحقيقه الخطاب الصوفي ومضمونه الروحي والأخلاقي والاجتماعي، بالإضافة إلى ذلك أن المجتمع في حاجة ماسة لعديد من قيم التصوف في مواجهة مهددات الأمن الفكري والاجتماعي، وتوضيح منهج المتصوفة وخصوصًا أن هذه الفئة تتمتع بقبول اجتماعي واسع من الفئات الاجتماعية والاقتصادية، لأن منهجهم يقوم على مناهج الإصلاح والمصلحة العامة وتحقيق منافع الناس.

عناصر البحث

ويتكون البحث من عدة عناصر:

المحور الأول: توضيح العلاقة بين تجديد روح التصوف والخلل الذي شاب التجربة الصوفية فكرًا وممارسة.

المحور الثاني: شرح التجارب التي عملت على إحياء المشروع التجديدي للتصوف الإسلامي مع توضيح إسهامات العلماء والباحثين الغربيين المعاصرين في هذا المجال.

المحور الثالث: نناقش دور التصوف الإسلامي في مواجهة أزمة الإنسان المعاصر.

المحور الرابع: دور التصوف الإسلامي في بناء وتنمية الإنسان المعاصر.

وفي **الخاتمة** تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه البحث وعرضت أيضًا لأهم المصادر والمراجع التي استعنت بها.

المحور الأول

توضيح العلاقة بتن تجديد روح التصوف والخلل الذي شاب التجربة الصوفية فكرا وممارسة

لقد تعرض التصوف منذ عدة قرون إلى اليوم لعدد كبير من الهزات العنيفة والنقد الشديد بلغت حدود الإنكار، ورمى أهله بالشرك والزندقة، ورغم ذلك استطاعت هذه التجربة الروحية الصمود في وقت أعلنت فيه عديد من التيارات الفكرية إفلاسها. ولعل من أخطر أنواع الإساءات التي تعرض لها الفكر الصوفي هي تلك التي صدرت عن بعض المنتسبين والمحسوبين على التصوف، الذين انقلبوا إلى الجهالة فأهملوا الواجبات الشرعية وهجروا القرآن والحديث، واشتغلوا بالشطح والهرطقة والفلسفات وتشوفوا للخوارق والكرامات وجاءت بعض الأفكار التي أدعى أصحابها إنها تعمل على تجديد التصوف لتضاعف من أزمة الفكر الصوفي، سيما وإنها لا تحمل من التجديد غير الاسم والصفة

ومن جانب آخر يعتبر تجديد الفكر الصوفي من مشمولات التجديد الديني؛ لأن التصوف من صميم الدين، وبات تجديده وإعادته إلى ما كان عليه من صلاح ضرورة ملحة، ولذلك فإن تجديد الدين بمفهومه السليم هو العودة به إلى أصوله ومنابعه الأصلية، وهي عملية مشروطة بأن لا يقع التجديد على مبادئ الدين وثوابته الراسخة، بقدر ما أن المرجو والمطلوب هو أن يستهدف التجديد بالأساس علاقة المؤمن بربه، ومن ثم كان منطلق التجديد في الدين عامة وهو حديث الرسول ﷺ: «**أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[١].

وبناء على ذلك يعتبر تجديد الفكر الصوفي من مشمولات التجديد الديني، ويشهد على ذلك ما ذكره الشيخ أحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ - ١٤٩٤م) في كتابة قواعد التصوف وهو القول المنسوب للإمام مالك (ت ١٧٩هـ - ٧٩٥م) «من تصوف ولم يتفقه؛ فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف؛ فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»، ولذلك أدرك الشيخ أحمد زروق أن

(١) أبو داود: كتاب السنن أول كتاب، باب ما يذكر في القرن المائة - رقم الحديث ٤٢٩١.

سلوك القوم، الذي به تعرف أحكام الظاهر، ولا فقه إلا بالتصوف الذي به يتحقق صدق العمل والتوجه.(١)

وانطلاقا من هذه العلاقة بين الفقه والتصوف بات تجديد التصوف مشروطا بتصحيح الخلل الذي شاب التجربة الصوفية فكرا وممارسة واذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر.

فصل الشريعة عن الحقيقة: وهي من المفاهيم الخطيرة التي ادعى أصحابها أن المتصوفة أهل باطن وغيرهم أهل ظاهر، وتوسلوا بطرق مخالفة تقوم على يسر الدين وتقديم التربية الروحية على التكاليف الشرعية، بدعوى أن النفس لا تطيق ما يتجاوز وسعها، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهو الأمر الذي أدركه الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ) وأنكره في كتابه «الفتح الرباني والفيض الرحماني» بقوله: «ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال».(٢)

وأيضًا من الأمور التي أحدثت خللا وشابت التجربة الصوفية فكرا وممارسة **الغلو والمغالاة في الدين** عندما جعل بعض المنتسبين للتصوف - اسما وصفة ليس إلا - الغلو جوهر التصوف؛ فاعتزلوا الناس وانقطعوا للعبادة، غير مبالين بواجباتهم الدنيوية، وكل ذلك على حساب انفسهم وذواتهم، ولم يستحضروا قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ ﴾ [النساء: ١٧١].

بالإضافة إلى ذلك **التكاسل والبطالة بدعوى الزهد** وهو الأمر الذي أشار إليه منصور محمد المهدي في كتابه « التجديد في الفكر الصوفي» بقوله: أن بعض المنتسبين للتصوف ساءوا فهم معنى الزهد فأثروا الراحة والبطالة، واعتزلوا الخلق، وا كتفوا بمقام التوكل؛ وبات تصوفهم أقرب إلى الرهبانية التي لايجرؤ عليها إلا من نفض يده من أسباب الحياة ورفض

(١) الشيخ أحمد زروق: قواعد التصوف، دار البيروني، ط ١، دمشق، ٢٠٠٤ م، صـ ١.

(٢) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الريان للتراث، ط١، ١٩٨٨م، صـ ٥٤.

الدنيـا، ....، ....، فوقع هؤلاء في التواكل وباتوا عاله في المجتمع، ونسـوا أن التوكل طاقة وحرارة في المسـلم تدفعه للجـد والاجتهاد، وأن الله يدعو عباده إلى اتخاذ الأسـباب والنهوض إليها تأدبا مع سنة الله في الكون[١].

ولعـل أيضًـا أبرز أوجه الخلل الذي شـاب التجربـة الصوفية هو ما ذكره حجة الإسـلام الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م) في كتابه « روضة الطالبين وعمدة السـالكين»، **الإعراض عن طلب العلم والتهوين من شـأنه**. عندما أسـقط بعض المتصوفة العلم الشرعي من التجربة الصوفيـة والروحيـة، بدعـوى أن الصوفي من أهل الخصوصيـة والفتوحات والعلـوم اللدونية والتجليـات، ولكـن الأمر على العكس من ذلك فالتصوف علم وعمل، لأنه يسـتهدف سـلوك المـرء، وعمل يرى مشـهودًا في أخلاق الناس، فالتصوف - كما يرى الإمـام الغزالي - أوله علم، وأوسـطه عمل، وآخره موهبه؛ فالعلم يكشـف عن المراد، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل[٢].

(١) منصـور محمد المهدي: التجديد في الفكر الصوفي، نماذج من مدارس التصوف التجديدي، مطبعة المعارج الجديدة، الرباط، ٢٠١٥م، صـ ٧٣، ٧٤.

(٢) أبو حامد الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، الناشر المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م صـ ١١٧.

المحور الثاني

شرح التجارب التي عملت على إحياء المشروع التجديدي للتصوف الإسلامي مع توضيح إسهامات العلماء والباحثتن الغربيتن المعاصرين في هذا المجال

وانطلاقًا من هذه الأفكار التي شابت التجربة الصوفية فكرا وممارسة بدات حركة التجديد في الفكر الصوفي، لأن الإنسان اليوم في حاجة إلى ما يرضي عقله، ويشبع روحه، ويعيد إليه ثقته بنفسه وطمأنينته التي بدا يفقدها في زحمة الحياة المادية وما فيها من ألوان الصراع العقائدي المختلفة، وبهذا يحقق معنى إنسانيته.

وبناء على ذلك فإن التصوف ليس هروبا من واقع الحياة، كما يقول خصومة، وإنما هو محاولة من الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشاكلها، وبذلك يصبح مفهوم التصوف إيجابيا لاسلبيا، مادام يربط بين حياة الإنسان ومجتمعه.

والجدير بالذكر أن التصوف الإسلامي فيه الكثير من المبادئ الإيجابية التي تحقق تطور المجتمع إلى الأمام، **وهو الأمر الذي أظهر تجارب مشرقة عملت على إحياء المشروع التجديدي والأمثلة على ذلك كثيرة أذكر منها:**

المشروع التجديدي للإمام الغزالي والذي انطلق من تشخيص واقع عصره، سيما في الجانبين العلمي والديني وشكلت مادته أساسا لقراءة نقدية لواقع التصوف، وعبر الغزالي عن ذلك بجلاء في كتابه «إحياء علوم الدين»، ذلك التصنيف الذي أفرده لتمييز بعض المنتسبين والدخلاء على العرفان، كما نبه في الوقت ذاته على الانحرافات التي سقط فيها كثير من هؤلاء كالغرور والجهل والشطح والقول بالاتحاد والتفريق بين الحقيقة والشريعة[١].

ولم يقف الإمام الغزالي عند هذا الحد من توجيه النقد بل وضع مشروعا تجديديا قوامه أربعة عناصر. **المرتكز الأول:** إلزامية العودة إلى العلم الشرعي كشرط صحة في تكوين

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ج٢، دار الأرقم، ط١، بيروت، ١٩٩٨م، صـ ٥٦، ٥٧، صـ ٣٥٥.

السالك، لذلك كان العلم أول العقبات في المنهاج الذي رسمه للعابدين وهو الأمر الذي وضحه في كتابه « منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين»، **المرتكز الثاني**: الدعوة إلى تصوف عملي بعيدا عن الشطح والتهويل والذوق المطلق، ويتضح ذلك في كتاب (الأربعين في أصول الدين) والذي جعله مخصوصا بالتربية السلوكية[١]، ويتصل **المركز الثالث** بتأصيل الزهد وتخليصه من أشكال العنف التي يمارسها الزاهد على ذاته، والدعوة بالمقابل إلى عدم ترك الدنيا أو قمع الشهوات بالكلية، أما **المرتكز الرابع** والأساس فيتجسد في وضع منهاج جديد لطلاب العلم، يكون للتربية فيه أثر واضح حتى لا يترسخ الفصل بين الصوفية وطلب العلم[٢].

وعلى الجانب الآخر يمكن اعتبارا تجربة الشيخ عبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ/ ١١٦٥م) التجديدية كانت رد فعل طبيعي على الواقع السياسي والديني الذي عايشه وقد ذكر تفاصيل ذلك المشروع في كتبه الثلاثة (**الغنية لطالبى الحق وفتوح الغيب وآداب السلوك**) وكانت نقطة البداية في مشروعه التجديدي الوقوف أمام الانحرافات الضالة التي أمسى عليها بعض متصوفة وقته، ثم قام بعملية تصحيح على أساس العودة بالتصوف إلى مصادره الأصلية، متمثلة في الكتاب والسنة، كما حارب الفكرة الداعية إلى فصل الشريعة عن الحقيقة، والتي كانت سائدة في عصره، فكل حقيقة لا تشهد لها الشريعة في نظرة تعتبر من قبيل الذندقة.

بالإضافة إلى ذلك سار الشيخ الجيلاني على نفس درب حجة الإسلام الإمام الغزالي فدعا إلى الزهد السني، المشروط بإبعاد التصوف عن الاطروحات الفلسفية المضللة، والتأكيد على أهمية شيخ التربية في تكوين المريدين[٣].

وعلى الجانب الآخرأيضا ظهرت مدارس تجديدية معاصرة ولكن لم تذهب بعيدا عن النهج الذي رسمه الجيل الأول من المجددين والمثال على ذلك مدرسة الشيخ خالد النقشبندي (ت ١٢٤٢هـ)، والشيخ أحمد بن مصطفى العلوي (١٣٥٣هـ)، والشيخ أحمد كفتارو (ت ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٤ م).

---

(١) الغزالي: منهاج العابدين، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٩م، صـ ٥٩، ٧٠.

(٢) الغزالي: الأربعين في أصول الدين، تصحيح عبدالله عبدالمجيد، دار القلم، ط١، دمشق، ٢٠٠٣م، صـ ٨٩.

(٣) عبدالقادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، تحقيق أنس مهري، دار الكتب العلميه، بيروت، لبنان، صـ ١٧٩.

كما ظهرت مدارس أخرى في الوقت الحاضر تدعو إلى إحياء روح التجديد في التصوف الإسلامي وأصدق دليل على ذلك الأفكار التي نادى بها **أستاذنا الدكتور أحمد الجزار** والتي غمرت كتبه الكثير من الآراء التي تدعو إلى التجديد في روح التصوف بل كان أكثر دقة ونظر ثاقب عندما أعتبر أن السلبيات التي توجد لدى بعض الأتباع المنتمين للطرق الصوفية لا تقدح على الإطلاق في قيمته، ولا فاعليته في المجتمع الإسلامي المعاصر، و إذا يستطيع شيوخ الصوفية وأتباعهم - كما يرى د. الجزار - أن يقدموا نماذج فعالة للخلقُ الإسلامي في أكمل صورة، فالصوفية الحق تحرص على أتباع الهدي النبوي كما هو في أصول الطريقة.

بالإضافة إلى ذلك فإن الطرق الصوفية تستطيع أن تلعب دورًا مهمًّا في الجانب الاجتماعي والسعي إلى قضاء حوائج المحتاجين والفقراء، .....، .....، .....، ....، كما يستطيع أيضًا أن تكون داعية إلى تغيير الظواهر السلبية بين الناس وواد المشاحنات، وتكثيف الدعوة إلى التآخي والمحبة بين كل أفراد المجتمع بشكل يؤكد وحدته ويشيع مناخا للتنمية الشاملة في كل مناحي المجتمع(١).

ومن هذا المنطلق أيضًا ذهب د. **الجزار** بلا تردد إلى أبعد من ذلك حيثما أعتبر أن التصوف يعد جسرا روحيا بين الشرق والغرب وبالتالي يمكن أن يكون نقطة تقارب وتلاق بين الأديان، الأمر الذي يسهم في قتل حدة التعصب بين كل المتعصبين في الأديان.

وعلى الجانب آخر يرى **د. الجزار** أن ما قدمه الباحثين في التصوف من الغربيين يعد نموذجا طيبا للتعايش السلمى ودفاعا لغرس قيم المحبة وواد الحروب والمشاحنات التي هي ظاهرة جلية في كثير من البلدان الغربية وغير الغربية.

وهو الأمر الذي أدركه **المستشرق الإيطالي جوزيبى سكاتولين** عندما استقر في وجدانه أن التصوف الإسلامي مع كل الحركات الروحانية في مختلف الأديان هي المنقذ من شرور العولمة المادية، وأن التمسك بالروحانيات وحدة هو ما سيبني قرية إنسانية عالمية على أساس من التلاقى لا التنافر والرفض، وأظهر ذلك من خلال كتابه «تأملات في التصوف والحوار الديني» والذي تحدث فيه عن الحياة الدينية الروحية التي تمثل البعد الاسمى والأعمق في كل الديانات.(٢)

(١) د. أحمد محمود الجزار: الفكر المصري المعاصر والتصوف، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، صـ ٧٢.

(٢) د. جوزيبي اسكاتولين: تأملات في التصوف والحوار الديني، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، صـ ١١٧.

ومن جانب آخر اعتبر الأب سـكاتولين أن أهمال البعـد الروحي في الحضارة الحديثة هي المفسـدة الكبرى ويجب علينا جميعا أن نحي تلك القيم الروحية وننشرها؛ لأن الإنسان بدونها من وجهة نظره ينزل إلى مرتبة أقل من مرتبة الحيوانات.

بالإضافة إلى ذلك كانت للمسـتشرق الإيطالي نظرة ثاقبة في الاستفادة من الموالد والحضرة الصوفيـة، فالمهم في رأيه أن تؤدي تلك الممارسـات إلى التجديد الروحي في الإنسـان من خلال صفات الرحمة، المحبة، الحق، العدل، السلام و إلا ظلت مجرد شعائر ظاهرية لم تلمس الباطن أو تغلفه بقيم المحبة والرحمة[١].

(١) د. جوزيبي اسكاتولين: نفس المرجع السابق، صـ١١٨.

المبحث الثالث

دور التصوف في مواجهة أزمة الإنسان المعاصر

يعتقد الكثير من الناس أن التصوف يمثل تجربة ذاتية في أصله وجوهره، وانكفاء على الذات وهروب من الواقع وفرار من الناس، كما استقر في أذهان الكثير صورة سلبية عن التصوف وهي صورة موروثة عن العهود السابقة، تعتمد في أصلها على جملة من البدع والاعتقادات والممارسات الشركية التي تتجلى في تقديس الأولياء والتمسح بقبورهم والاعتقاد في قدراتهم الخارقة على تحقيق الكرامات والتقرب بهم إلى الله زلفى، سواء منهم الأحياء أو الأموات، كما شاع عند الصوفية على وجه الخصوص أنهم قوم قعدوا عن الكسب والاحتراف، وركنوا إلى التواكل، ولم يكتفوا بأن يكونوا عالة على المجتمع، بل أسهموا في تخلفه بما أشاعوا فيه من بدع اعتقادية وانحرافات سلوكية.

ولكن على العكس من ذلك كله فالتصوف بما يحمل من مضامين روحية قادرًا على تغيير هذه النظرة السلبية له وأصدق دليل على ذلك يقدم التصوف العلاج الشافي لأمراض العصر التي يعاني منها الإنسان؛ لأن أزمة الإنسان المعاصر في أصلها أزمة أخلاقية، ورسالة الرسول ﷺ تتمثل في إتمام مكارم الأخلاق، ولذلك أدرك معظم الصوفية، أن الأخلاق دعامة التصوف ولخصوا الطريق في (التخلي) و(التحلي)، فالتصوف استقامة في السلوك قبل كل شيء، ولا تحصل تلك الاستقامة إلا بالتخلي عن الصفات المذمومة والأفعال القبيحة، والتحلي بالصفات الحميدة، ولايبلغ الصوف الكمال في السلوك إلا إذا حسنت أخلاقه وتميز بالصلاح والفضل والتقوى والورع، ولذلك اتخذ الصوفية من الرسول ﷺ المثل الأعلى لبناء الأخلاق وتصديقًا لذلك يقول الإمام الجنيد شيخ الطائفة (ت ٢٩٨هـ): «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول وتبع ولزم طريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه»(١).

كما أدرك الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) أهمية الأخلاق في بناء الإنسان ولخص ذلك بقوله:

---

(١) الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف رزيق وعلى عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م، صـ ٤٣٠.

«واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق»[١] وبنفس المعنى أشار الإمام القشيري بقوله: «التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء»[٢].

وبناء على ذلك يتبين أن الأزمة الأخلاقية والاجتماعية والروحية وحالة الفوضى الاضطراب التي يعيشها الإنسان المعاصر، ليس إلا نتيجة الفراغ الروحي والاضطراب النفسي، فبعد أن هيمنت المادة على الإنسان المعاصر وانحطت القيم الأخلاقية في هذا العالم، وانتشرت الأهواء والصراعات الإيديولوجية حول السلطة وتهافت الناس حول المكاسب الدنيوية، لم يجد الإنسان اليوم سوى اللجوء إلى الجانب الروحي والدخول في الممارسة العرفانية بهدف الوصول إلى السعادة الوجدانية والراحة النفسية.

بالإضافة إلى ذلك فإن الحاجه إلى التصوف والجانب الروحي لاتقف عند حدود الفرد العادى بل تتخطى ذلك إلى المجتمع بل إلى العالم الآخر المحيط بنا وما يمر به من أعباء سياسية وفكرية واجتماعية، فالعالم كله بحدوده يشعر الآن بحاجته الشديدة إلى هذه الدفعة الروحية لتنقذه من المادية وتلهمه السداد في طريقه، وأصبح الحل كما يقول (العلامة برجسون): «الإنسانية اليوم أكبر ما تكون في حاجه إلى الوثبة الروحية حتى تقيم التعادل مع وثبتها المادية، وأن الجسم الذي تضخم ينتظر الآن نفخة روحية، وأن الآلية بحاجه إلى صوفية، ......، ....، ....»[٣].

وعلى ذلك يتبن أن التربية الصوفية الصحيحة، والقدوة الكريمة، والبعث الروحي، والصورة المثالية للفرد والأمة التي يحققها التصوف والجانب الروحي هي التي تعيد للإنسان التوازن وتصحح له الخطوات، بالإضافة إلى ذلك فإن بناء مستقبل الإنسان يحتم علينا الانفتاح على الآخر والتواصل معه من خلال نشر القيم الروحية والأخلاقية للإسلام كحل واقعي يمكننا من تجاوز أزمة الإنسان المعاصر والحالة المرضية التي يمر بها؛ لأنه يقوم على التوازن بين المادة والروح، وبين الدنيا والآخرة.

(١) ابن القيم الجوزيه: مدارج السالكين، ج٢، تحقيق محمود حامد الفقي، بيروت، ١٩٧٢م، صـ ٣١٦.
(٢) الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، مصدر سابق، صـ ٢٨٠.
(٣) فوزي محمد أبو زيد: المنهج الصوفي والحياة العصرية، دار الايمان والحياة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م صـ ١٣٨.

المبحث الرابع

دور التصوف الإسلامي في بناء وتنمية الإنسان المعاصر

ينقسم دور التصوف الإسلامي في بناء وتنمية الإنسان المعاصر إلى عدة نقاط أذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر.

أولا: البناء الروحي للإنسان

بداية يمكن القول أن الإنسان حظى باهتمام بالغ في الوقت الحديث والمعاصر حتى أصبح مركزا للكون وكائنا مطلقا يمكن اعتباره مصدرا للحقيقة ومنبعا لجميع المعارف هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن بناء الإنسان يأتي قبل كل بنيان؛ لأنه محور كل تقدم حقيقي ومستمر، ونبه القرآن الكريم على ذلك، بل أسس لبناء الإنسان بناءً متكاملًا شاملًا للجوانب الروحية والعقلية والجسدية.

وقد أدرك الصوفية أن بداية تكوين البناء الروحي للإنسان تكون من خلال التربية والتزكية لأن التربية الصوفية تمثل حصانة للفرد ضد الانحراف من خلال التجليات الإيمانية والروحية والذهنية ولضمان نجاح تنمية المجتمع المسلم لابد أولا من ضبط تكوين الذات الفردية داخل المجتمع، لأن مجموع الأفراد هم من يمثلون المجتمع.

ولذلك بدأ الصوفية طريق بداية تنمية الفرد المسلم والبناء الروحي للإنسان من خلال ضبط الانفعالات وتوفير الأمن النفسي للإنسان، لأن الانفعالات هي أظهر الحالات النفسية التي يتجلى فيها الوجدان، كالخوف والفرح والحزن والقلق، والأسف والندم، ....، ... والتصوف بوارداته يساهم في ضبط الانفعال وذلك من خلال فهم حقيقة النفس وكيفية ترويضها، وامتلاكه لها وتحكمه فيها، بالإضافة إلى ذلك يصل الفرد إلى الأمن النفسي، إذا سلم ورضى بقسم الله حتى لا يفرح بما أتاه ولا يحزن على مافاته.

وترجم الإمام أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)هذا المعنى بقوله «أن يستشعر الفرد سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، طيب النفس وسكونها في كل حال وطمأنينة القلب شيء واغتباطه بقسمة ربه وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى في كل شيء ورضاه بأدنى

شيء، وتسلمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير وكمال التقدير فيها»(١) مما يؤدي إلى تكامل الشخصية.

ومن جانب آخر إذا استقر الأمن النفس والانفعالي للإنسان المسلم ظهرت عليه عد أمور منها :

أولا: النضج الانفعالي والمراد به اعتماد الفرد على نفسه وثقته بها، مما يجعله واقعيًا في مواجهة مشاكل الحياة.

ثانياً: قدرة الفرد على الثبات والصمود حيال الأزمات والمشاكل، وذلك يعني تحكم الفرد في انفعالاته واتزان نفسيته، وذلك هو عين التنمية الشخصية، فالفرد إذا تعامل مع المشكلات الحياتية والعقبات التي تعرقل حركة التنمية بصمود، كان جديرا بأن يكون يدًا مساهمًا في تنمية المجمتع.

ثالثًا: شعور الفرد بالسعادة والطمأنينة وراحة البال وتوفير الأمن النفسي لحياته، مما يؤدي إلى تضييق الفجوة بين الطموحات والإنجازات ويقلل شعور الفرد بالإحباط.

رابعًا: قدرة الفرد على تبني مقاييس من القيم والمثل العليا، وترجمتها إلى خطة عملية تعين الإنسان على مواجهة مشكلاته وتحقيق طموحاته، وتقدمه في حياته ونهضته في عمله.

بالإضافة إلى ذلك اعتبر الصوفية أن ذكر الله تعالى من دواعي تحقيق الأمن النفسي وإزالة التوتر والقلق الذي يعوق عملية التقدم والنهضة في نفسية الفرد والذي يؤدي إلى شعوره بالإحباط تجاه واقع حياته وتصديقًا لذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فبذكر الله يتخلص العبد من الهموم والأحزان، وعند ذلك تستريح النفس وتأمن، وتأكيدًا على ذلك يقول الصوفي ابن عطاء الله السكندري (ت ٦٥٨ هـ) في الذاكرين وحالهم «خلص الله قلوبهم مما سواه فلم تعقهم العوائق، ولم تشغلهم عن الله الخلائق، فسبقوا إلى الله إذا لا مانع لهم، وإنما منع العباد من السبق، جوانب التعلق بغير الله»(٢).

(١) أبو طالب المكي: فوت القلوب، ج٢، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٧م ص ٧٩.

(٢) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، تحقيق وتعليق د.عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ٢٠٦٦م.

وأيضًا مـن دواعي تكوين البناء الروحي للإنسـان والتي ترتبط ارتباطـا وثيقا بالضمير، المراقبـة والمحاسـبة، وبهـما تتم عمليـة بناء الإنسـان وتنمية المجتمـع، فإذا راقـب الفرد ربه وحاسب نفسه على تقصيره في عمله وأدرك مراقبة الله له، بذل غاية وسعه لتحقيق أكبر نجاح يأخـذه إلى التنمية في مجال عمله، وبالمحاسـبة يتخلص الفرد مـن الأنانيه عند تحقيق المصلحة، وتحول وجهتها من الفرد إلى الجماعة.

ومن هنا اشـترط الصوفية في شـخصية السـالك ودوام المراقبة، لأنها دليل على نجاح الفرد في دنيـاه وفي آخرتـه، لذلـك قالوا عن المراقبـة: «هي إدامة علـم العبد بإطلاع الـرب عليه»، واستشـعار رقابة الله تعالى تجعل الفرد رقيبا على ظاهره وباطنه، رقيبا على بدنه، رقيبا على قلبه، رقيبا على روحه، رقيبا على كل الأشياء الموجودات ليستعملها لما خلقت له.

وهـو الأمر الـذي إدركه الإمـام الغزالي فشـدد على خطـورة غفلة الضمير عـن المراقبة والمحاسـبة عند التوجه لسـائر الأعمال، ومـدى خطورة ذلك على عاقبة الأمـر فقال: «وليعلم أهل البصائر أنهم سيناقشـون في الحسـاب، ويطالبون بمثاقيل الذر مـن الخطرات واللحظات، ويلتحققوا أنه لاينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسـبتها في الخطرات واللحظات فمن يحاسـب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيام حسابه»[١].

ثانيا: البناء العلمي للإنسان

بدايـة يمكـن القول أن الصوفية الأوائـل اهتموا بالعلم اهتماما كبـيرا، مثل الإمام الجنيد، والقطب الجيلاني، والإمام الشـاذلي، كما اشـترط الإمام الشعراني للشيخ في الطريق إلى الله أن يكون عنده علم العلماء، وتدبير الأطباء وسياسة الحكماء[٢].

بالإضافة إلى ذلك وفق الصوفية بين العلم والعمل، وبين السعي في الحياة الدنيا وبين السعي للآخرة، ولم يقفوا حجر عثرة في وجه التفكير الحر والرقي العلمي، كما إنهم لم يشجبوا الأخذ بالتقـدم العمراني والتكنولوجي في الدول المتقدمة، وإنما طلبوا أن نتوخى الحذر، وأن نزن كل

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج١، ص ٥٨.
(٢) فوزي محمد أبو زيد: المنهج الصوفي والحياة العصرية، مرجع سابق، ص ١٧٠.

ما نلتقطه بميزان عدل، فنرفض الذي يخالف عقيدتنا ونأخذ بالذي يتوافق مع مفاهيم الإسلام وقيمنا الحياتية(١).

ولكن لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا ترك المشتغلون بالدين الخمول والتبطل والانعزال، وشاركوا في الحياة العامة مشاركة فعالة، وبدوا في تطبيق الفكر الإسلامي في ميادين الحياة العلمية، حتى يمكن تغيير النظرة إلى الإسلام بما هو جدير به من احترام وتقدير.

وهو الأمر الذي أدركه الدكتور عبد الحليم محمود عندما فرق بين النظرة الأوروبية إلى العلم والنظرة الإسلامية إليه فيقول: «وإذا اقتصرت أوروبا على العلم المادي، فإن الإسلام: لا يقف عند ذلك، إنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة، ألا وهو: القلب أو هو الروح والبصرية، إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية، أو الكشفية، أو الإلهامية، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصري»(٢). في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبناءً على ما سبق يتبين تمسك الصوفية بالعلم، بل اعتبر الصوفية الطريق الصحيح لبناء الإنسان المعاصر يبدأ بالعلم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يرفض الصوفية علم العالم الآخر وتقدمه، بل نادى الصوفية بالأخذ من علمهم ولكن مع ما يتوافق مع مفاهيم التصوف والجانب الروحي.

وعلى الجانب الآخر يعتقد الكثير من الصوفية أن العلم والعمل توأمان لاينفكان عن بعضهما والسالك في طريق الإيمان والتعرف على الله والوصول إلى رضاه لايستغنى عن العلم في أيه مرحلة من مراحل سلوكه، ففي ابتداء سيرة لابد له من علم العقائد وتصحيح العبادات واستقامة المعاملات، ......، ......، ....، إذ يرى الصوفية أن التصوف ليس إلا التطبيق العملي للإسلام كاملا غير منقوص في جميع جوانبه الظاهرة والباطنة(٣).

وأيضًا من الأمور التي نادى بها الصوفية لبناء مستقبل أفضل للإنسان وتساعد في البناء الفكري والثقافي له ربط التصوف بالعلم والتربية؛ لأن بالعلم يقيس السالك مدى صحة

---

(١) نفس المرجع السابق: صـ ١٦٨.

(٢) د. عبدالحليم محمود: الإسلام والعقل، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ص ٢١٦.

(٣) الشيخ عبدالقادر عيسي: حقائق عن التصوف، ، ط٥، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٧٩.

وسلامة سيرة على طريق الشريعة، وهو الأمر الذي سيفضي إلى تنوير العقول والقلوب، وتصحيح المفاهيم وتجديد العزيمة، ولما كانت التربية احدى الأركان الأساس في تجربة أهل الصلاح و إحياءها اليوم يقتضى مراعاة ظروف العصر، لأن الصوفي الحق هو ابن وقته، وهذا التكييف من شأنه أن يكون إنسانا يجمع بين التزكية النفسية والتكوين العلمي، وهناك العديد من مناهج المصلحين حفلت بنماذج تربوية عملت على تحقيق الغايات وتصديقا لذلك الشيخ أحمد كفتار واستطاع أن يخرج من مدرسته الصوفية رجالا أكفاء في جميع الميادين(١).

ثالثا: البناء العملي للإنسان

يعتقد البعض من الناس أن الصوفية قوم كسالى، وأن التصوف مظهرًا من مظاهر الضعف، إلا أن حياة رجال الصوفية تهدم دعوى أعداء الصوفية وتأكيدًا على ذلك يقول الإمام الجنيد: «الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح»(٢) فالتصوف ليس ضعفا وانعزالا، أنه الجهاد والعلم حتى أضفي موارده والحق في أعلى مثله، والإيمان في أسمى أنواره و إشراقاته، لقد كان التصوف الإسلامي طوال تاريخه هو القوة الملهمة للفداء والتضحية وهو الروح الصانعة للعزيمة، وهو الدرع الذي يحمي أخلاق المجتمع من التفكك والفناء(٣).

وقد وضع الله عَزَّوَجَلَّ دستورًا لذلك فيقول في كتابه العزيز: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] ويتضح من قول الله عَزَّوَجَلَّ أن الإنسان مطالب بالعمل وعدم الركون والتواكل وهو الأمر الذي إدراكه عدد غير قليل من الصوفية وأصدق دليل على ذلك الإمام الشاذلي كان يكره المريد المتعطل، ويحث على طرق باب الأسباب والعمل، وكان يعمل في الزراعة على نطاق واسع، فهو يتحدث في خطاب له لأحد أصدقائه عن سبب تأخره في السفر فيقول: «وسبب الإمساك عن السفر في العادة زرع لنا يدرس قد حرث لنا في ثلاثة مواضع»(٤).

(١) منصور محمد المهدي: التجديد في الفكر الصوفي، مرجع سابق، صـ ٢٤٥.

(٢) ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق صفوت جودة أحمد، دار الخلود للتراث، ط١، ٢٠٠٨م، صـ١٥.

(٣) د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، ط٤، القاهرة، د.ت، صـ ٥٣.

(٤) ابن الصباغ: درة الأسرار وتحفة الأبرار، دار الحسين الإسلامية، القاهرة، د.ت، صـ ٦١.

بالإضافة إلى ذلك جعلت المدرسة الشاذلية التذكير على أهمية العمل والسعي في طلب الرزق من الخصائص الضرورية، وتصديقا على ذلك جعل الإمام الشاذلي اتخاذ المريد حرفة يقتات بها ويستر نفسه وأهله شرطا أساس من شروط الطريق، فكان يكره المريد العاطل السائل للناس، وأعطى المريدية مثالا حيا للتوكل، حيث اتخذ من الفلاحة سببا.

وكان الشيخ إبراهيم الدسوقي يقول «عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها، والصوفي الصادق هو الذي يطعم ولا يطعم»(١)، بالإضافة إلى ذلك لم يعد التصوف عند الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم رحمه الله خلوات وأوراد وحلقات ذكر فحسب بل منهج بين التعاون على البر كسلوك وبين الاجتماع على الذكر وتلقى العلم الشرعي كأساس للتربية الروحية والقلبية والعمل الاجتماعي الإنساني(٢).

ومن جانب آخر عمل الصوفية على تكوين فرد صالح داخل المجتمع لبناء الجانب العملي للإنسان المسلم من خلال إحياء مشروع الإصلاح، فقد جعل الصوفية مشروع الإصلاح ينطلق من النفس والقلب، إذ هما مدار الصلاح أو الفساد وتصديقا لذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، كما استدل الصوفية أيضًا بالجانب النبوى قول الرسول ﷺ: **«ألا في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**(٣)، كما أن القلب هو محط نظر الله تعالى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(٤).

ولذلك إدراك الصوفية أن أساس كل إصلاح يكمن في إصلاح القلب والنفس، ولا نجاح لدعوة إلا بهذين العنصرين في برنامجهم الإصلاحي، ومن هذا المنطلق عمل الصوفية على إصلاح وتأهيل الفرد ليكون صالحا ومصلحا في المجتمع وذلك من خلال وضع برنامج تربوي

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، تحقيق سليمان الصالح، دار المعرفة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، صـ ٢٤٧، ٢٥٨.

(٢) د. مصطفى أحمد سعفان: ملامح التجديد في النهوض بالطريقة الصوفية عند الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم، دار نوبار للطباعة، صـ ١٥٢.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ص ٢٨، ٥٨.

(٤) الإمام مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، رقم الحديث ٢٥٦٤.

ومنسجهم مع الواقع وروح العصر، وتجعله قادرًا على التعامل مع المشاكل والأزمات عن منعزل عن المجتمع سواء في الخير أو الشر.

كما إدراك الصوفية ثمرة التربية الصوفية والخوف من عواقب الأمور، فهم يخافون من عواقب شيء صغير هين، ليس له وزن، وأصدق دليل على ذلك قصة عبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ) فقد سيب دابة قيمتها كبيرة وصلى الظهر، فرتعت الدابة في زرع قريبة سلطانية، فترك ابن المبارك الدابة ولم يركبها(١).

بالإضافة إلى ذلك قصة أبي صالح حمدون القصار (ت ٢٧١هـ) مع أحد ضيوفه، قال أبو صالح لأحد أصدقائه: «أذنبت ذنبا أبكى عليه منذ أربعين سنة، وذلك أنه زارني أخي لي بدرهم سمكة مشوية، فلما فرغ أخذت قطعة طين، من دار جار لي، حتى غسل يده، ولم أستلحه (أي لم أستأذن منه)»(٢).

وبناء على ذلك يتبين أن الصوفية أعطوا النموذج الأمثل للفرد الصالح المصلح الذي يكون له الأثر الواضح ليس فقط على نفسه بل يتعدي ذلك إلى المجتمع الذي يعيش فيه من خلال ضرب الأمثلة على القدوة الصالحة وهو الأمر الذي يساهم في بناء المجتمع على أسس أخلاقية راقية؛ لأن الأخلاق هي أساس بناء الحضارة وتقدم البشرية نحو مستقبل أفضل.

---

(١) الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، صـ ١١٣.

(٢) الإمام القشيري: نفس المصدر السابق، صـ ١١٤.

الخاتمة وأهم النتائج

أولًا: إن الاعتقاد بسلبية الأداء الصوفي ودورة في صنع النهضة ناشئ عن عدم فهم جوهره والإخفاق في تطبيق مبادئه، ولأنه تعلق بالعوائد الشعبية، وامتزج بالطقوس العامية وتوقف عند العروض الشكلية الفارغة عن المحتوى.

ثانيًا: إن السلوك الصوفي إيجابي فعال، ومظاهر الانحراف والتطرف والخروج عن الشرع والشعوذة والدجل والمكر والخداع، هي أمور تحسب على التصوف ولا تنتمي إليه.

ثالثًا: إن التصوف عامل تقدم وازدهار في المجتمع، بناء على المبادئ السابقة، وذلك لايتم إلا إذا انتقلنا من المفهوم التقليدي له، إلى العمل بنظام المعهد والمؤسسة والجامعة، وفق هيا كل وهيئات محددة ومنظمة.

رابعًا: إن تجديد روح التصوف ليتلاءم مع تطلعات الإنسان المعاصر وآفاق الحضارة التي ينتمى إليها رهان لا يتحقق إلا بالتعاون بين السادة الصوفية بتحليهم بالتسامح والإرادة الكبيرة بينهم.

خامسًا: إن التحديات التي تواجه الإنسان المعاصر، تستدعي منه التحلي بالنظر الثاقب ورجاحة العقل، والبعد عن الحالات الانفعالية الهائجة، ولا يمكن في هذه العجالة أن نسترسل في مسح جميع جوانب التصوف مسحا نقديا، فالخطب جلل و يتطلب إرساء لبناء يقوم عليها مشروع صوفي حضاري قديم.

سادسًا: لا شك إن تجديد روح التصوف، أصبح رهانا علميا وحضاريا، ينهض به الجميع، ولذلك يلزم أن يدخله كثير من الغربلة والتصفية، وخاصة الأفكار المنحولة والغربية التي تنبذها الفطرة البشرية، أو أنها لا تتوافق مع المبادئ الإسلامية في القيم والمضامين، ولا تتناسب مع أدنى الالتزام الأخلاقي، ولاتتوقف عند وازع أو ضمير، فالتصوف الراشد في المقام الأول سبيل الدين الحنيف ومنه يأخذ شرعه وشرعيته.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: كتب السنة

١) **الإمام أبو داود:** كتاب السنن، باب ما يذكر في القرن المائة، رقم الحديث (٤٢٩١).

٢) **الإمام البخاري:** صحيح البخاري، ج١ كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الصفحة ٢٨، ٥٨.

٣) **الإمام مسلم:** صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم الحديث (٢٥٦٤).

ثانيا: المصادر

٤) **ابن الصباغ (الصوفي):** درة الأسرار وتحفة الأبرار، دار الحسين الإسلامية، القاهرة، د. ت.

٥) **ابن عجيبة (الصوفي):** معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق صفوت جودة أحمد، دار الخلود للتراث، ط١، ٢٠٠٨م.

١. بيروت، ١٩٨٩م.

٦) **الجوزية (ابن القيم):** مدارج السالكين، ج٢، تحقيق محمود حامد الفقي، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

٧) **الجيلاني (عبد القادر):** الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الريان للتراث، ط٢، ١٩٨٨م.

١. دمشق، ٢٠٠٣م.

٨) **زروق (الشيخ أحمد):** قواعد التصوف، دار البيروني، ط٢، دمشق، ٢٠٠٤م.

٩) **السكندري (ابن عطاء الله):** لطائف المنن، تحقيق د.عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٠) **السلمي (عبد الرحمن):** طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

١١) **الشعراني (الإمام)**: الطبقات الكبرى، تحقيق سليمان الصالح، دار المعرفة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

١٢) **عيسى (الشيخ عبد القادر)**: حقائق عن التصوف، ط٥، القاهرة ٢٠٠١م.

١٣) **الغزالي (أبو حامد)**: روضة الطالبين وعمدة السالكين، الناشر دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٤) ....: إحياء علوم الدين، ج١، ج٢، دار الأرقم، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

١٥) ....: منهاج العابدين، تحقيق محمد مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة، ط٢.

١٦) ....: الأربعين في أصول الدين، تصحيح عبد الله عبد الحميد، دار القلم، ط١.

١٧) **القشيري (الإمام)**: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف رزيق وعلى عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

١٨) **المكي (أبو طالب)**: قوت القلوب، ج٢، تحقيق وتصحيح باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

ثالثا: المراجع الحديثة

١٩) **أبو زيد (فوزي محمد)**: المنهج الصوفي والحياة العصرية، دار الإيمان والحياة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

٢٠) **اسكاتولين (جوزيبي)**: تأملات في التصوف والحوار، تقديم د. عمار على حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م.

٢١) **الجزار (د. أحمد محمود)**: الفكر المصري المعاصر، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

٢٢) **سعفان (د.مصطفى أحمد)**: ملامح التجديد في النهوض بالطريقة الصوفية عند الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم، دار نوبار للطباعة، د.ت.

٢٣) **محمود (د. عبد الحليم)**: الإسلام والعقل، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٢٤) ....: قضية التصوف (المدرسة الشاذلية)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٢٥) **المهدي (منصور محمد)**: التجديد في الفكر الصوفي نماذج من مدارس التصوف التجديدي، مطبعة المعارج الجديدة، الرباط، المغرب، ٢٠١٥م.

٢٦) **النجار (د.عامر)**: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، ط٤، القاهرة، د.ت.

رابعا: كتب التراجم والمعاجم

٢٧) **ابن العماد**: شذرات الذهب، ج٢، ج٥، ج٦، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

٢٨) **الأزهري**: تهذيب اللغة، ج٦، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط١، ١٩٧٦م.

٢٩) **الجرجاني (على بن محمد)**: المعجم الصوفي، دار الرشاد، ط١، القاهرة، ١٩٩٧م.

٣٠) **الزركلي (خير الدين)**: الأعلام، ج٢، ، ج٦، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

٣١) **الشرقاوي (د.حسن)**: معجم ألفاظ الصوفية، دار عالم الفكر، ط٢، القاهرة، ١٩٩٢م.

٣٢) **الكاشاني (عبد الرازق)**: معجم مصطلحات الصوفية، تحقيق د.عبد الخالق محمود، مكتبة الآداب، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٧م.